إلى اللقاء... الأمين الشيخ مصطفى الأمين

لم يكن الأمين الشيخ مصطفى الأمين مجرد رجلٍ عابرٍ في سجل الأيام، بل كان زمناً كاملاً يتجسّد في إنسان؛ زمناً من العطاء النبيل، والرؤية الصافية، والإيمان العميق بمعنى الوطن.

قبل أن أتعرف عليه في ثمانينات القرن الماضي، كان اسمه يسبق حضوره، وسيرته تملأ الأسماع والبصائر، بوصفه واحداً من أبرز وجوه الجيل الثاني الذي تفتحت عينه على الاستقلال، وحمل على عاتقه أمانة البناء بعد أن وضعت الحرب أوزارها. وقد ورث عن والده، الشيخ مصطفى الأمين، ذلك الرمز الوطني الباذخ، صلابة الإرادة ونقاء القصد، فكان امتداداً أميناً لسيرةٍ صنعت مجداً، ومشروعاً لم ينقطع عطاؤه. ثم جاءت المعرفة، لا بوصفها لقاءً عابراً، بل بوصفها صحبةً ممتدة، تعمّقت بأواصر الصداقة النبيلة بين زوجتي ثريا فتح الرحمن البشير وزوجته فتحية عبد المنعم حفيدة خليفة المهدي، وتكرّست الصلات بعِشرة الجيرة في حي المنشية، حتى غدت العلاقة بيننا نسيجاً من الود الصافي والصدق النبيل. وفي تلك السنوات، رأيت كيف كان الأمين يصعد درجات المجد في صمت، لا صخب فيه، جامعاً بين حكمة التجربة وأفق المعرفة، ومجسداً نموذجاً فريداً لرجل الأعمال الذي لا يفصل نجاحه الخاص عن مسؤوليته العامة.

لم تكن لقاءاتنا مجرد أحاديث ليلية تتبدد مع الفجر، بل كانت مساحاتٍ تتلاقى فيها الرؤى، وتُختبر فيها الأفكار، ويتجلى فيها همّ السودان في أصدق صوره. كان يتحدث عن الوطن كما يتحدث المؤمن عن قدره: بإيمانٍ لا يتزعزع، وأملٍ لا ينطفئ، وإصرارٍ على أن يكون الغد أفضل مما نراه اليوم. وقد جسّد ذلك في أفعاله قبل أقواله، حين أولى الإنسان السوداني عنايةً توازي عنايته برأس المال، فكان داعماً للتعليم، ومؤمناً بأن بناء الأوطان يبدأ ببناء العقول.

غير أن أعظم ما يكشف معدن الرجال هو ما يواجهونه من ابتلاء، وقد شهدت للأمين في محنته الكبرى ما تعجز الكلمات عن وصفه. حين فقد فلذة كبده عبد المنعم، لم ينكسر كما ينكسر الناس، بل ارتقى إلى مقام المحتسبين، يخفي حزنه في عمق الروح، ويُظهر للآخرين سكينةً تواسيهم. كان حزنه عظيماً، لكنه كان أكبر من أن يُرى، وأصدق من أن يُقال.

وتتوالى في الذاكرة مواقف الوفاء التي لا تُنسى، حين كان يقابل حاجة المحتاجين بالعطاء، والضيق بالسعة، في بساطةٍ لا تعرف المنّ، ونبلٍ لا ينتظر جزاء. ولم يكن ذلك استثناءً، بل كان سجيته التي عُرف بها.

ثم جاءت أيام الغربة القسرية التي فرضتها الحرب الفاجرة، فازدادت المسافات بيننا، لكنها لم تزد العلاقة إلا قرباً. كان يتابع كتاباتي، يقرأها بعين الخبير، ويعلّق عليها بصوتٍ يحمل وضوح الرؤية وصدق الإحساس، وينهي حديثه دائماً بالدعاء للسودان، وكأن الوطن كان نبضاً لا يفارقه.

لكن صوته، الذي كان يملأ الأفق حياة، جاءني في آخر مرة خافتاً، مثقلاً بوطأة المرض، يحمل في نبرته ما لا تقوله الكلمات. ومع ذلك، ظل ثابتاً، مؤمناً بأن ما كتبه الله هو الخير، حتى أسلم روحه في هدوء المؤمنين، بعد رحلة صبرٍ طويلة.

لم يكن رحيله غياب رجلٍ فحسب، بل انطفاء حضورٍ كان يملأ المكان معنى، ويفيض على من حوله نوراً. ومنذ أن بلغني نبأ رحيله، وأنا أفتش في الذاكرة عن صوته، وفي الدعاء عن عزاء، وفي القلب عن موضعٍ يتسع لهذا الغياب.

وفي لقائنا الأخير، كان حديثه صافياً كأنما يُمهّد للوداع، يتحدث عن عمرٍ قضاه في خدمة أسرته ووطنه، وعن رضا يملأ قلبه، واستعدادٍ للقاء ربه. وحين أستعيد ذلك الحديث اليوم، أدرك أنه كان يودّع الدنيا بطمأنينة من أدّى رسالته ومضى.

أخي الحبيب الأمين، فرّقنا هادم اللذات، لكن ما لا يفرّقه الموت هو ما عشته معنا من أثرٍ صادق نبيل، وذكرى طيبة، وسيرةٍ تظل حيةً في النفوس. لم تكن حضوراً عابراً، بل كنت معنىً ممتداً، سيبقى ما بقي فينا نبضٌ يذكرك.

فلن أقول لك وداعاً... بل إلى لقاءٍ نرجوه عند من لا تضيع عنده الودائع، ولا يخيب لديه الرجاء.

اللهم ارحم عبدك الأمين الشيخ مصطفى الأمين، واغفر له، واجعل ما قدّم في ميزان حسناته، وأسكنه الفردوس الأعلى، وألهم زوجته وذريته وأهله ومحبيه الصبر الجميل.

إنا لله وإنا إليه راجعون.

مكي مدني الشبلي

نوتنجهام أبريل 2026